دخول همزة الاستفهام على حروف العطف في النَّصّ القرآن
دراسة تحليلية

د. عبد الواحد محمد الحربي
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بجامعة القصيم

المقدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد:

فإنّ القرآن الكريم ، مصدرَ التّشريع الأولَ ، أَهمُ مصادر اللُّغة والنَّحـــو ، التي قامت عليه أسس العربيَّة ، وبُنِيت عليه أصولها .

وقد عرّف كثير من الباحثين ــ قديماً وحديثاً ــ هذا الأمر، فوجّهوا جهدهم البحثيّ نحو لغة القرآن الكريم وأسلوبه، فنتج عنه دراسات ضخمة ومؤلَّفات جليلة ، أثرت المكتبة العربيَّة، ونفعت أصحابها وأفادت طلاَّب العلم، وعلـــى كثـــرة هـــذه الدِّراسات والمؤلَّفات، لا تزال لغة القرآن الكريم، وأسلوبه البـــديع بحاجـــة دائمـــة وملحَّة إلى الدَّرس والبحث والتَّنقيب، فهو المعين الذي لا ينضب، والبحر الزاخـــر الذي لا تتوقَّف أمواجه.

ومن هذه الأساليب البديعة التي وقفت عنـــدها طـــويلاً متـــأمِّلاً، أســـلوب الاستفهام في القرآن الكريم؛ حيث وجدته يتراوح في استعماله بين الحقيقة اللُّغويّـــة لمعنى الاستفهام، وبين استعماله في غير بابه وخروجه إلى معانٍ كثيرة تزيده جمالاً وإبداعاً، وتوضيحاً وجلاءً.

وعند تتبُّعي لهذا الأسلوب في كتاب الله الكريم ، وجدته يرد في غير معناه الحقيقيّ كثيراً جداً، يفوق استعماله في المعنى الحقيقيّ.

كما وجدت أكثر المعاني غير الحقيقيَّة التي طرقها هـــذا الأســـلوب، هـــو أسلوب الاستفهام الإنكاريّ ؛ وذلك لما في هذا الأسلوب البديع من قوَّةٍ ووضوحٍ في

تأدية المعاني لدى المتكلم ؛ ولما فيه من ورسوخ وثبات لها في ذهن السَّامع والمخاطب ؛ فرغبت أن يكون هذا البحث منتظماً في عقد الدِّراسات اللغويّة لأساليب القرآن الكريم ، وشرعت في جمع أساليب الاستفهام الإنكاريّ في القرآن الكريم ؛ فلمّا ألفيْته واسعاً يحتاج إلى دراسات مستفيضة ووقت طويل ، قَصَرْت دراستي حول موضوع انبثق من هذا المجموع ، وهي دراسة بعنوان : « دخول همزة الاستفهام على حروف العطف في النّصِّ القرآنيّ ــ دراسة تحليليّة » ، وقبل الشُّروع في كتابة هذا البحث ، بذلت جهدي في تتبُّع الدِّراسات اللّغويَّة الَّتي كُتِبت حول هذا الموضوع في القرآن الكريم ، فلم أقف على بحثٍ متخصِّص فيه .

إثر ذلك بدأت هذا العمل ؛ فجمعت الآيات القرآنيَّة الَّتي ورد فيها هذا الأسلوب ، ثمّ صنَّفتها حَسْب الجمل المعطوفة التي تصدّرتها همزة الاستفهام ، من حيث النّفي والإثبات، واطّلعت على آراء علماء اللّغة والمفسِّرين حول هذا الأسلوب، ودرستها وعرضت آراءهم وأدلتهم على القياس والمعنى، محاولاً توضيحها والتَّرجيح بينها.

ثمَّ خرجت من ذلك كلّه بملّخص يجمع أطراف هذا البحث ، ويلملم شتاته بعبارة واضحة ودراسة دقيقة ، هي هذا البحث بصورته النّهائيّة .

وبذلت جهدي في ذلك مستمداً من الله العون والسدّاد ، و داعياً ربِّي أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأوَّل: الاستفهام وما اختُصَّت به همزتُه من الأحكام .

الاستفهام هُو: أسلوب لغويٌّ من أساليب السُّؤال ، يهدف إلى طلب الإفهام تصوّراً أو تصديقاً ، وهو نوعان :

١) – حقيقيّ : وهو ما يقصد به صاحبه معرفة ما يجهله .

٢) – مجازيّ : وهو ما يعلم صاحبه جوابه ، ولكنّه يقصد معنًى آخرَ يُفْهَم من السِّياق بعد التأمّل في النّصّ .

وللاستفهام أدوات يتحقّق بها الغرض من طلب الإفهام، وهذه الأدوات على قسمين:

الأوّل : الحروف ، وهما حرفان : الهمزة ، وَ هَلْ.

الثّاني: الأسماء، وهي: (ما)، وَ (مَنْ) ، وَ (مَتَى) ، وَ (أَينَ) ، وَ (كَمْ) وَ (كَيْفَ)، وَ (أيَّانَ) ، وَ(أَنَّى) ، وَ (أيْ) .

وهذه الأسماءُ كُلُّها مبنيَّةٌ إلاَّ (أيْ) ، فإنَّها معربة .

واختُصَّت الهمزة من بين أدوات الاستفهام ببعض الأحكام ، منها :

١– استعمالها مع الاستفهام التَّصديقيّ[١]، والتَّصوُّريّ[٢].

---

(١) ــ الاستفهام التصديقي، هو: إثبات النسبة بين شيئين، أو نفيهما، ويجاب عنه بـــ (نعم، وَ لا، وَ بلى)، وأدواته: الهمزة وَ هل. نحو قوله تعالى: (أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ). يونس: من الآية (٧٧).

(٢) ــ الاستفهام التصوّري هو: استفهام يطلب به تعيين أحد الشيئين، وفي هذه الحالة يأتي أحد هذين الشيئين بعد همزة الاستفهام مباشرة، ثم يأتي بعده حرف العطف (أم)، وتسمى (أم) المعادلة، وأدواته: جميع أدوات الاستفهام نحو، قوله تعالى : (ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ). الواقعة: من الآية(٥٩).

٢- دخولها على الجمل المثبتة والمنفيَّة .

٣- جواز حذفها تخفيفاً للكلام .

٤- وممّا اختصت به أيضاً ، أنَّها تكون للإثبات ، كقول الشَّاعر :

أطَرَباً وأنْتَ قِنَّسْرِيُّ؟ والدّهر بالإنسان دوّاريُّ[١]

خاطب نفسه مستفهماً ، وهو مُثبت ، أي : قد طربت ، ولا يجوز : هل طَرَباً ؟

٥- أنَّها تسبق حروف الجرّ، نحو قوله تعالى :﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٢] .

٦- ومما يدلّ على قوَّة الهمزة في بابها وأصالتها فيه، أنَّ حرف العطف ــ الذي من شأنه أن يقع قبل المعطوف ــ لا يتقدَّمُ عليها، إن كان المعطوف جملة مصدَّرة بهمزة الاستفهام، بل يجب تقديمها على حروف العطف الثَّلاثة (الواو، والفاء، وَ ثُمَّ)، نحو: أوَ لم أُحْسِنْ إليكَ؟ ، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا ﴾[٣] ، ونحو: أفَلَمْ أُكْرِمكَ؟، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟

(١) البيت للعجاج . ينظر : ديوانه : ٤٨٠/١ ، والكتاب : ٣٣٨/١ .

(٢)- إبراهيم : من الآية(١٠) .

(٣)- البقرة : من الآية(١٠٠).

لَكُمْ ﴾[1] ، ونحو قوله تعالى :﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾[2] .

وكان القياس تأخيرها عن العاطف، فيقال: وَ أَلَمْ أُحْسِنْ إليك؟ وَ فَأَلَمْ أُكْرِمْك؟ ، كما تُقَدَّمُ على سائر أدوات الاستفهام، نحو قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾[3] ، وقوله تعالى:﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾[4]، فلا يجوز أن يُؤَخَّر العاطف عن شيءٍ من هذه الأدوات ؛ لأنَّ أدوات الاستفهام جُزءٌ من جملة الاستفهام، والعاطف لا يُقَدَّم عليه جزءٌ من المعطوف.

وإنّما خولف هذا التَّرتيب مع همزة الاستفهام ؛ لأنَّها أصل أدوات الاستفهام ، فأرادوا تقديمها ؛ تنبيهاً على أصالتها فيه ؛ لأنَّ الاستفهام له صدر الكلام.[5]

المبحث الثَّاني: دخول همزة الاستفهام على حروف العطف في القرآن الكريم، وفيه مطلبان :

المطلب الأوَّل: دخول همزة الاستفهام على حروف العطف في الجمل المثبتة:

ورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم مع حروف العطف الثَّلاثة (الفاء، والواو، وثُمَّ).

---

(١) – البقرة: من الآية(٧٥).

(٢) – يونس: من الآية(٥١) .

(٣) – آل عمران: من الآية(١٠١).

(٤) – التكوير : الآية(٢٦)

(٥) ينظر: الأمالي – لابن الشجري : ١/٤٠٠ ، والجني الداني : ص(٣٠) ، وَ مغني اللبيب: ١/٨٣ – ٨٤ ، وَ همع الهوامع : ٤/٣٦٠.

أمّا مجيئه مصاحباً حرف العطف (الفاء) فهو أكثر من أخويه ؛ حيث جاءت همزة الاستفهام داخلة على حرف العطف (الفاء) في الجمل المثبتة في واحدٍ وسبعين موضعاً، منها قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ ﴾[3].

أمّا مجيء هذا الأسلوب مع حرف العطف (الواو) ، فقد ورد في القرآن الكريم في أربعةٍ وعشرين موضعاً ، منها: قوله تعالى:﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾[4] ، وقوله تعالى :﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾[5]، وقوله تعالى :﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾[6] .

وأمّا مجيء هذا الأسلوب مع حرف العطف (ثُمّ) ، فقد ورد في القرآن الكريم في موضع واحدٍ ، وهو قوله تعالى:﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾[7].

---

(١) – البقرة : من الآية(٧٥)
(٢) – الكهف : من الآية(٥٠)
(٣) – الملك : من الآية(٢٢)
(٤) – البقرة : من الآية(١٠٠)
(٥) – الشعراء : من الآية(٣٠)
(٦) – الزخرف : من الآية(١٨)
(٧) – يونس: من الآية(٥١)

ولعلَّ سبَبَ وروده في القرآن الكريم في موضع واحدٍ ، خلافاً لقسيميْهِ (الفاء، والواو)؛ إنَّما هو بسبب تركُّبِه من ثلاثة أحرف ؛ وبدخول همزة الاستفهام عليه؛ فإنَّه يتركَّبُ من أربعة حروف ؛ ومثلُ هذا التَّركيب في صدر الكلام ثقيل على المتكلّم والمخاطب .

والله تعالى أجلّ و أعلم.

المطلب الثَّاني : دخول همزة الاستفهام على حروف العطف في الجمل المنفيَّة:

وردت همزة الاستفهام مع حرف العطف (الفاء) متبوعاً بجملة منفية بـ (لا) في خمسة و أربعين موضعاً، في القرآن الكريم، منه قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾(٢) .

ووردت همزة الاستفهام متصدّرة حرف العطف (الفاء) في الجملة المنفية بـ (لم) في اثني عشر موضعاً ، منه قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٣) .

---

(١) – البقرة : الآية(٤٤)

(٢) – العاديات : الآية(٩)

(٣) – الرعد : من الآية(٣١)

وورد حرف العطف (الفاء) مع همزة الاستفهام متبوعاً بجملة منفيـــة بـــ (ما) في موضع واحد ، هو قوله تعالى :﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ (١)

أمّا دخول همزة الاستفهام على حرف العطف (الواو) متبوعاً بجملة منفية بـــ (لم) فورد في خمسة وثلاثين موضعاً في القرآن الكريم منها ، قوله تعالى:﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ قَالَ ﴾ (٢) ، ونحو قوله تعالى :﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ ﴾(٣)، وجاءت همزة الاستفهام متصدّرة حرف العطف (الواو) المتبوع ، بجملة منفية بـــ (لا) في أربعة مواضع، منها قوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾(٤).

وورد هذا الأسلوب مع واو العطف ، متبوعاً بـــ (ليس) في موضعين هما: قول الله تعالى:﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ ﴾(٦).

---

(١) – الصافات : الآية(٥٨)
(٢) – البقرة: الآية(٢٦٠)
(٣) – فاطر : من الآية(٣٧)
(٤) – مريم : الآية(٦٧)
(٥) – العنكبوت: من الآية(١٠)
(٦) – يس : من الآية(٨١)

أمّا دخول همزة الاستفهام على حرف العطف (ثمّ) مع الجمل المنفيَّة ، فلم يرد في القرآن الكريم؛ ولعلّ سبب ذلك هو ما سبق ذكره [١]، من أنَّ مثل هذا الأسلوب يكون ثقيلاً عند دخول همزة الاستفهام عليه في الجمل المثبتة ؛فمن باب أولى أن يكون ثقله أكثر بدخول الهمزة عليه مع النَّفي .

المبحث الثالث : دخول همزة الاستفهام على حروف العطف عند علماء العربيَّة:

عندما نظر علماء العربيّة في هذا الأسلوب الوارد بكثرة في كلام الله تعالى ، رأوا في تسلّط همزة الاستفهام على حرف العطف غرابة ؛ فحاولوا صرف هذا الأسلوب عن ظاهره؛ تخلّصاً من هذا الأمر الغريب ، وساروا في ذلك على طريقين [٢]:

الأوّل : ذهب أصحاب هذا الرَّأي ، إلى أنّ همزة الاستفهام في الأصل متأخرة عن العاطف ؛ ولكنَّها قُدِّمَت عليه لفظاً لا حكماً؛ تنبيهاً على أصالتها في تمام التَّصدير؛ لأنّ الاستفهام له الصدارة؛ « وإنَّما لزم تصديره ؛ لأنَّك لو أخَّرْته ؛ تناقض كلامك، فلو قلت: جلس زيدٌ أينَ ؟ ، وَ خرج محمدٌ متى ؟ جعلت أولّ كلامك جملة خبريَّة ، ثمّ نقضت الخبر بالاستفهام ؛ فلذلك وجب أن تُقدِّم الاستفهام ، فتقول: أينَ جلس زيدٌ؟ ومتى خرج محمدٌ ؟ لأنّ مرادك أن تستفهم عن مكان جلوس زيدٍ، وزمان خروج محمدٍ ، فزال بتقديم الاستفهام التناقض« [٣].

---

(١) – ينظر : ص(٦)

(٢) – ينظر : التحرير والتنوير ــ لابن عاشور: ٥٩٦/١

(٣) – ينظر : الأمالي ــ لابن الشجري : ٤٠٣/١

والهمزة أصل هذا التَّصدُّر وتمامه ؛ لأنَّها أمُّ الباب ، ولمَا سبق ذكره مِمَّا اختُصَّت به من أحكام دون سائر أخواتها[١].

فأصل الكلام في نحو قوله تعالى :﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٢] ، وفي نحو قوله تعالى :﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾[٣] وفي نحو قوله تعالى:﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾[٤] :

(وَأَلَم ينظروا....) ، وَ (فَأَلم يسيروا ...) ، وَ (ثُمَّ أَ إذا ما وقع ....) فالأصل عطف الاستفهام على ما سبق مذكوراً ، أو مقدراً .

وهذا مذهب أكثر علماء العربيّة قديماً وحديثاً، وعلى رأسهم سيبويه[٥]، والمبرِّد[٦]،

---

(١) – ينظر ما سبق : ص(٣) .

(٢) – الأعراف: من الآية(١٨٥).

(٣) – يوسف: من الآية(١٠٩).

(٤) – يونس: من الآية(٥١)

(٥) – ينظر: الكتاب: ١٨٧/٣، وسيبويه هو: عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر، إمام النحاة، وأول من بسط النحو، وأصّل قواعده، شيخ المدرسة البصريّة، وإمامها، من تلاميذ الخليل بن أحمد، ألّف مصنَّفاً في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله، وهو الكتاب. (ت١٨٠هـ). ينظر: بغية الوعاة ــ للسيوطي : ٢٢٩/٢.

(٦) – ينظر: المقتضب: ٣٠٧/٣، و المبرد هو: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، إمام العربية في وقته، ورائد المدرسة البصرية وشيخها وأحد أئمة اللغة والأدب والأخبار، من مصنفاته كتاب «المقتضب»، وَ«الكامل في اللّغة والأدب».(ت ٢٨٦هـ) ينظر: وفيات الأعيان ــ لابن خلكان: ٤٩٥/١.

ومَن تبعهما، كابن الشَّجريّ[١]، وابن مالك [٢]، وأبي حيَّان الأندلسيّ [٣]، والمراديّ[٤]، والسَّمين الحلبيّ[٥]، وابن هشام[٦]، وغيرهم.

---

(١) – ينظر: الأمالي: ٤٠٠/١، وابن الشجري هو: الشريف ضياء الدين، أبو السعادات ، هبة الله بن علي ابن محمد الحَسني العلوي، أوحد زمانه في علوم العربيّة، وأشعار العرب، أقرأ النحو سبعين عاماً، من مؤلفاته: «الأمالي» و«الانتصار»، وَ «الحماسة » . ت(٥٤٢هـ) . ينظر : وفيات الأعيان : ٤٥/٦.

(٢) – ينظر : شرح التسهيل له :١١١/٤ ، وابن مالك هو : محمد بن عبد الله بن مالك ، الطائي الجيّاني ، أبو عبد الله ، جمال الدين ، أحد الأئمة المعدودين في العربية ، والقراءات ، وَ اللغة ، والفقه ، سارت بمؤلفاته الرّكبان ، وتلقّاها طلاب العلم بالقبول ، منها :«تسهيل الفوائد»، وَ«الكافية الشافية» .(ت ٦٧٢هـ) . ينظر: بغية الوعاة :١٣٠/١.

(٣) – ينظر : ارتشاف الضرب : ٢٠١٧/٤ ، والبحر المحيط :١٨٣/١ ، وأبو حيان هو : محمد بن يوسف ابن علي الغرناطي الأندلسي ، أثير الدين ، أبو حيّان ، من كبار الأئمة والعلماء بالعربية ،والتفسير ، والحديث ، والتراجم ، واللّغات ، له مصنّفات جليلة اشتهرت في حياته ، منها : «التذييل والتكميل شرح التسهيل» ، وَ «البحر المحيط»، وَ« ارتشاف الضَّرَب»، وغيرها . (ت ٧٤٥هـ) . ينظر : الدّرر الكامنة ــ لابن حجر : ٧٠/٥.

(٤) – ينظر الجني الداني : ص(٣١) ، والمرادي هو : الحسن بن قاسم بن عبد الله المصري ، أبو محمد المرادي ، المعروف بابن أمّ قاسم ، إمام في اللغة ، والفقه وأصوله ، والقراءات ، له مشاركات في الأدب واللّغة ، من مؤلفاته :«شرح التسهيل»وَ«شرح المفصّل»، وَ«الجنى الدّاني».(ت ٧٤٩هـ) ، ينظر : بغية الوعاة :٥١٧/١.

(٥) – ينظر: الدّر المصون: ٢١١/١، والسمين الحلبي هو: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين، من أئمة القراءات، والتفسير، واللّغة، والنحو، له مصنّفات دقيقة، منها: «تفسير القرآن»، وَ«الدّر المصون» وَ«عمدة الحفّاظ» . (ت٧٥٦هـ). ينظر: بغية الوعاة: ٤٠٢/١.

(٦) – ينظر : مغني اللّبيب : ٨٥/١ ، وابن هشام هو : أبو محمد ، عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد ابن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري من أئمة النحو واللغة ، فاق أقرانه شهرة ومكانة ، انفرد بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة ، له مؤلفات كثيرة جليلة القدر ، منها : « مغني اللبيب » ، وَ « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك « وَ«التذكرة » . (ت٧٦١هـ) . ينظر : بغية الوعاة : ٦٨/٢.

الثاني : ذهب أصحاب هذا الرَّأي إلى أنَّ كلاًّ من همزة الاستفهام وحرف العطف في محلّه ، ولا تقديم لأحدهما على الآخر ، فكلُّ أسلوب في القرآن الكريم وردت فيه همزة الاستفهام داخلة في اللّفظ على أحد حروف العطف الثلاثة (الواو، والفاء، وَ ثُمَّ) ؛ فإنَّ فيه حذفاً لمعطوف عليه ، يُقَدَّر بما يناسب السياق والمقام .

فنحو قوله تعالى :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ﴾[1]، تقديره: (أمكثوا فلم سيروا)[2]، ونحو قوله تعالى:﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾[3]، تقديره : (أكفروا بالآيات البينات وَ كلَّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم)[4] ، أي أنّ المعنى هو إنكار التَّعقيب ؛ لا تعقيب الإنكار[5]، كما يذهب إليه الجمهور . والذي دعاهم إلى ذلك أمران :

الأول : أمرٌ صناعيّ ؛ حيث إنَّ القول بتقديم همزة الاستفهام من تأخير ، وهي جزء من جملة المعطوف ، خلاف الأصل .

الثاني : أمرٌ بلاغيّ ؛ حيث إنّ في الحذف من التأمل والتدبّر للمعنى ما لا يكون مع ذكره ؛ لأنَّ عطف جملة على أخرى يأتي لتوكيد المعنى وبيانه ؛ فإذا كان المعطوف عليه محذوفاً ؛ فإنّه يدفع العقل إلى مزيدٍ من التفكّر والتأمّل .

---

(١) – يوسف : من الآية(١٠٩).

(٢) – ينظر : مغني اللَّبيب : ٨٥/١

(٣) – البقرة : من الآية(١٠٠)

(٤) – ينظر : الكشاف : ٣٠٤/١

(٥) – ينظر : تفسير أبي السعود : ٢٦٢/٥.

ونَسَب هذا الرأي إلى الزّمخشريّ[١]كثيرٌ من متأخري النُّحاة ، كابن مالك[٢]، وأبي حيَّان[٣]، والمراديّ[٤]، والسّمين الحلبيّ[٥]، وابن هشام[٦]، والدّماميني[٧]، بل إنّ ابن هشام، نصّ على أنَّ الزَّمخشريَّ هو أوّل من قال به[٨]، واعترضه الدمَّامينيّ بأنّه مسبوق[٩]، ولكنّه لم يصرِّح بمن سبقه ، وقد صرّح أبو حيَّان بأنَّ مِمَّن قال بهذا الرَّأي محمد بن مسعود الغزنيّ[١٠]وهو سابقٌ للزَّمخشريّ .

---

(١) – هو : محمود بن عمر بن أحمد الخوارزمي ، جار الله ، أبو القاسم الزمخشري ، من أئمة العلم في الدين ، والتفسير، واللّغة، والأدب، تنقل في البلاد، وجاور بمكة، من مؤلفاته الجليلة: «الكشاف»، وَ« المفصّل» وَ«أساس البلاغة». (ت٥٣٨هـ). ينظر : وفيات الأعيان : ٨١/٢ .

(٢) – ينظر : شرح التسهيل : ١١/٤

(٣) – ينظر : ارتشاف الضرب : ٢٠١٧/٤ .

(٤) – ينظر : الجني الداني : ص(٣١) .

(٥) – ينظر : الدر المصون : ٢١١/١

(٦) – ينظر : المغني : ٨٥/١

(٧) – ينظر : حاشيته على مغني اللّبيب : ص(٣٠) ، والدماميني هو : محمد بن أبي بكر بن عمر المخزومي القرشي ، بدر الدين الدماميني ، عالم بالشريعة والعربية والأدب ، تنقل في كثير من البلاد ، وحطّ رحاله في الهند ، من مصنفاته : «تحفة الغريب»، وَ«نزول الغيث»وَ »»«تعليق الفرائد». (ت ٨٢٧هـ) . ينظر : الضوء اللاّمع ــ للسخاوي : ١٨٤/٧.

(٨) – ينظر : المغني : ٨٥/١

(٩) – ينظر : حاشيته على المغني : ص (٣٠) .

(١٠) – ينظر: ارتشاف الضرب: ٢٠١٧/٤، والغزني هو: محمد بن مسعود الغزني، أبو الذّكي، صاحب كتاب البديع، أكثر أبو حيَّان من النقل عنه وذكره ابن هشام في المغني، وقال: إنّه خالف فيه أقوال النحاة . (ت٤٢١هـ). ينظر بغية الوعاة ــ للسيوطي:٢٤٥/١، وكشف الظنون ــ لحاجي خليفة :٢٣٦/١.

وبتتبُّعي لكتب علماء اللّغة السَّابقين، وجدت مثل هذا التَّقدير والتَّوجيه عند أبي جعفر النّحاس[١]، فيكون بذلك من أوّل من قال به حسب ما وقفت عليه، ولكنّ الزَّمخشريّ لمّا احتفى بهذا الرَّأي وانتصر له، ظنّ كثيرٌ من النُّحاة أنّه رأي له. وممن سار على هذا الرَّأي، الزَّمخشري[٢]، والغزني[٣]، والسّكّاكي[٤]، وأبو السُّعود[٥].

واعترض الجمهور هذا الرَّأي بعدّة اعتراضات منها :

---

(١) – ينظر : إعراب القرآن للنحاس :٢/٢٥٨ ، و٣/١٧٨ ، والنّحاس هو : أحمد بن محمد بن إسماعيل، المرادي المصري، أبوجعفر من تلاميذ المبرّد، واسع العلم، غزير الرواية ، كثير التأليف، إمام في النحو واللغـــــة والقراءات، من مؤلفاته:«إعراب القرآن»، و«معاني القرآن»، و«شرح أبيات سيبويه»وغيرها . (ت ٣٣٨هـ) . ينظر: وفيات الأعيان : ١/٩٩.

(٢) – ينظر : الكشاف : ١/١٩٧ ، ٤٦٤ .

(٣) – ينظر : ارتشاف الضَرَب : ٤/٢٠١٧.

(٤) – ينظر : مفتاح العلوم : ص(٣٥٩) ، والسكّاكي هو : يوسف بن أبي بكر بن محمد ، أبو يعقوب السكاكي ، سراج الدين ، إمام في العربية والأدب والبيان ، من مصنفاته:«مفتاح العلوم»، و«رسالة في علم المناظرة». (ت ٦٢٦هـ) . ينظر : مفتاح السعادة ــ لطاش كبرى زاده : ١/١٨٨.

(٥) – ينظر: تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» : ١/١٦٨ ، ٢/٦٧٥، و ٤/٢١٠، وأبو السعود: هو: شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، أبوالسعود بن محمد العمادي كان له حظوة ومكانة عالية عند السلطان العثماني سليمان خان، له تفسيره المسمى: «إرشاد العقل السليم»، اشتهر صيته وانتشرت نسخه . ت (٩٨٢هـ) . ينظر : كشف الظنون : ١/٦٥.

أنَّ في هذا التَّقدير تكلّفاً ؛ لدعوى حذف الجملة ، والأصل عدم الحذف ؛ ولأنَّ مثل هذا التَّقدير ، بحذف المعطوفِ إنْ تأتَّي في بعض المواضع ، فإنَّه غير ممكن في نحو قوله تعالى :﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾(١).

وبأنَّ الزَّمخشريّ ــ وهو أشهر من قال بهذا الرّأي ــ قد تناقضت آراؤه في مثل هذا الأسلوب ، فهو يقول في مواضع بقول الجمهور ، منها مثلاً رأيه ــ عند قوله تعالى ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾(٢): ــ (قال: إنّه عطف على قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾(٣)، ولم يذكر فيه أنَّ همزة الاستفهام داخلة على محذوفٍ، كما رآه في بعض المواضع(٤).

وقوله ــ في أثناء تفسيره للآية الكريمة :﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾(٥)، فيمن قرأ بفتح الواو ــ : (إنّ«آباؤنا» عطف على الضمير في«لمبعوثون»)(٦)، وأنّه اكتفى بالفصل بينهما بهمزة الاستفهام، ولم يشر إلى الرَّأي

(١) – الرعد : من الآية(٣٣).
(٢) – الأعراف : من الآية(٩٧).
(٣) – الأعراف : من الآية(٩٦).
(٤) – ينظر : الكشاف : ٤٧٩/٢.
(٥) – الواقعة : الآيتان :(٤٧ ــ ٤٨).
(٦) – ينظر : الكشاف : ٣٠/٦.

الذي تبنّاه في أكثر أساليب هذا النَّوع من أنّ همزة الاستفهام داخلة على معطوف محذوف .

ومنه : أنّه في مواضع أخرى يجوّز ــ مع رأيه ــ مذهب الجمهور، كما فسَّر قوله تعالى :﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾[1]، حيث قال: (دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطف جملةً على جملةٍ، والمعنى : فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينها، ويجوز أن يُعطَف على محذوفٍ تقديره: أيتولَّون، فغير دين الله يبغون) [2] ، فعدم اقتصاره على رأيه في كلِّ موضع ، دليل على أنّ رأيه مرجوح .

وقد ردّ بعض العلماء تضعيف الجمهور لمذهب غيرهم بسبب تقدير المحذوف ؛ بأنّ الحذف خلاف الأصل ، فقال : كذلك ما ذهب إليه الجمهور من تقديم الهمزة التي هي جزء من المعطوف ، هو خلافُ الأصل أيضاً ، فقد تعادلا بمخالفة الأصل[3] ، ولا يرجح أحد القولين على الآخر، بل هما سواء.

وردّ الجمهور هذا الاعتراض بأنّه وإن كان خلافَ الأصل ، إلاّ أنَّه أسهل من مخالفة الأصل بالحذف ؛ لأنَّ ما فيه تجوُّزٌ بتقديم الهمزة أقلُّ لفظاً ، مع ما في هذا التجوّز من التّنبيه على أصالة الهمزة في التَّصدّر[4].

---

(١) – آل عمران : من الآية(٨٣) .

(٢) – ينظر : الكشاف : ٥٧٧/١.

(٣) – ينظر : حاشية الدسوقي على مغني اللبيب : ١٣/١.

(٤) – ينظر : مغني اللبيب : ٨٧/١.

وقد ذهب السّعد[١]، وتبعه شهاب الدّين الخفاجيّ[٢]، إلى أنّ من رد رأي الزّمخشري ورأى أنّ فيه تناقضاً ، لم يفهم كلامه ، وأنّه لا تناقض في رأيه ، إنّما وقع هذا الاختلاف في كلام الزّمخشريّ بحسب ما يقتضيه المقام والسّياق .

فقال السّعدُ: (المصنّف يحمله في بعض المواضع على هذا ، وفي بعضها على ذلك، بحسب مقتضى المقام وسياق الكلام ، ولم يلزم بطلان صدارة الهمزة إذا لم يتقدّمها شيء من الكلام الّذي دخلت عليه ، وتعلّق مضمونها به ، غاية الأمر أنّها توسّطت بين المتعاطفين ؛ لإفادة إنكار جمع الثاني مع الأوّل ، أو وقوعه بعده متراخياً أو غير متراخٍ ، وهذا مراد من قال : الهمزة مقحمة) [٣] .

وزاد الخفاجيّ هذا الأمر توضيحا فقال : (هذا ناشئٌ من عدم فهم كلامه ؛ فإنّ مذهبه أنّه إن ناسب ما قبله عُطِف ، وإلاّ قُدّر معطوفٌ عليه .

وتوضيح ذلك : أنّ قولك : زيدٌ يزوركَ ، أَفَتُكْرِمُه ؟ عطفه أحسن، وقولك: لا تعرفُ زيداً ، أَفَتُكْرمه ؟ التّقدير: أَبَلَغكَ فضلهُ وثناءُ النّاس عليه فأنتَ تكرمه)[٤].

---

(١) – هو : مسعود بن عمر بن عبد الله ، سعد الدّين التّفتازانيّ ، من أئمة العربية والبيان والمنطق، سيد المحقّقين، له مصنّفات جليلة ، منها :«المطول» ،و«إرشاد الهادي». (ت٧٩٢هـ). ينظر: بغية الوعاة : ٢٨٥/٢ .

(٢) – هو: أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ، المصري الحنفي ، أبو العباس واسع الثقافة ، متعدّد المعارف متنوّع العلوم، مدقق ومحقق في كثير من الفنون ، من مصنّفاته الكثيرة النافعة: ««حاشيته على البيضاوي»،و«السوانح والبوارح» . (ت١٠٦٩ه) . ينظر : خلاصة الأثر ــ للمحبّي : ٣٣/١ .

(٣) – ينظر : حاشيته على الكشّاف : لوحة١١٦/أ

(٤) –ينظر : نكت على مغنى اللبيب ــ للخفاجي : ص(١٥٢).

وأيّاً كان الخلاف بين المذهبين ، فإنّه ليس له أثرٌ بارزٌ إلاّ في اختلاف الاعتبار والتّقدير ، أمّا معنى الكلام فثابت غير متغيّر على كلا الاعتبارين ؛ لأنّ العطف والاستفهام كليهما متوجّهان إلى الجملة الواقعة بعدهما. (١)

وعلى هذا يمكن الجمع بين هذين الرّأيين ، والتّوفيق بينهما ؛ لأنّ لكلٍّ منهما وجهاً في الاستدلال والاتّباع ، فرأي الجمهور أقيس، ورأي من خالفهم أبلغ وأفصح. والله تعالى أجلُّ وأعلم .

(١) – ينظر : التحرير والتنوير :١/٥٩٧ .

فهرس المصادر والمراجع

١- إعراب القرآن للنّحّاس . تحقيق: د. زهير غازي زاهد. عالم الكتب. بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٢- الأمالي. لابن الشّجري. تحقيق: محمود الطناحي. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

٣- ارتشاف الضرب من لسان العرب. لأبي حيّان الأندلسي. تحقيق: د. رجب عثمان محمد. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٤- بغية الوعاة . للسيوطي . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر. الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٥- التحرير والتنوير. للطّاهر ابن عاشور . دار سحنون للنشر والتوزيع. تونس .

٦- تفسير أبي السّعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) .لأبي السعود الحنفي. تحقيق: عبد القادر عطا . مكتبة الرياض الحديثة . الرياض .

٧- تفسير البحر المحيط . لأبي حيّان الأندلسي . تحقيق : عادل عبد الموجود وزملائه . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

٨- الجنى الداني في حروف المعاني. للمرادي. تحقيق: د. فخر الدين قباوة والأستاذ. محمد نديم فاضل. دار الكتب العلمية. بيروت . الطبعة الأولى : ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

٩- حاشية الدّسوقي على مغني اللّبيب. ضبط وتصحيح: عبد السلام أمين. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى : ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

١٠- حاشية الدّماميني على مغني اللّبيب . بهامش حاشية الشمنّي على المغني. المطبعة البهيّة المصريّة. ١٣٠٤هـ.

١١- حاشية سعد الدّين التفتازاني على الكشّاف. مخطوطة ورقية برقم (٦٠/٣٢١) . بشير آغا. مكتبة الملك عبد العزيز في المدينة المنورة.

١٢- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . للمحبّي . دار صادر. بيروت.

١٣- الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . لابن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد سيد جاد الحق. دار الكتب الحديثة . مصر .

١٤- الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون . للسّمين الحلبي . تحقيق : د. أحمد الخراط . دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

١٥- ديوان العجّاج . تحقيق: د. عبد الحفيظ السطلي . مكتبة أطلس . دمشق.

١٦- شرح التسهيل . لابن مالك. تحقيق : د.عبد الرحمن السيد و د. محمد بدوي المختون . دار هجر . الطبعة الأولى : ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

١٧- الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع . للسّخاوي .دار الجيل. بيروت .

١٨- الكتاب. لسيبويه. تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الثالثة: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

١٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . للزمخشري .تحقيق :عادل عبد الموجود وزملائه مكتبة العبيكان. الرياض . الطبعة الأولى:١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٢٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. لحاجي خليفة. دار إحياء التّراث العربي. بيروت.

٢١- مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب. لابن هشام. تحقيق: د. عبد اللطيف الخطيب. الكويت. الطبعة الأولى : ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

٢٢- مفتاح السّعادة ومصباح السّيادة في موضوعات العلوم . لطاش كبرى زاده .دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٢٣- مفتاح العلوم. للسّكّاكي. تحقيق. د. عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى : ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

٢٤- المقتضب. للمبرد. تحقيق: عبد الخالق عظيمة.القاهرة.١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٢٥- نكت على مغني اللّبيب. للشّهاب الخفاجي . رسالة دكتوراه . تحقيق : عبد الواحد الحربي. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . ١٤٢٧ه .

٢٦- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع . للسيوطي . تحقيق : عبد العال مكرم . مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

٢٧- وفيات الأعيان . لابن خلّكان . تحقيق: د .إحسان عباس . دار صادر. بيروت.